

الباب الأول

المقدمة

أ. خلفية البحث

يُعدُّ الأدبُ أحدَ أبرز أشكال التعبير الإنساني؛ إذ ينشأ من تأمل الأديب لمختلف الظواهر التي يشهدها المجتمع. ومن خلال العمل الأدبي، لا يكتفي الأديب بتقديم أحداثٍ متخيَّلة، بل يعكس أيضًا الواقع الاجتماعي الذي يتطور في مرحلةٍ زمنيةٍ معينة. ولذلك كثيرًا ما تتناول الأعمال الأدبية قضايا اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية، إلى جانب العلاقات الإنسانية بمختلف صورها. وانطلاقًا من ذلك، لا يقتصر الأدب على كونه وسيلةً للمتعة، بل يؤدي دورًا مهمًّا في تصوير الواقع الاجتماعي، والتعبير عنه، ونقد الظواهر التي يشهدها المجتمع.

ومن القضايا التي حظيت باهتمامٍ كبير في الأعمال الأدبية قضية السلطة؛ إذ تُعدُّ جزءًا أساسيًا من الحياة الاجتماعية، ولها تأثيرٌ واضح في طبيعة العلاقة بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع. ولا تُمارَس السلطة دائمًا من خلال العنف أو الوسائل القسرية، بل قد تُمارَس بوسائل أكثر خفاءً، مثل ترسيخ القيم، ونشر الأفكار، وإضفاء الشرعية، ووضع القواعد التي يتقبلها المجتمع بوصفها أمرًا طبيعيًّا. ولذلك لا تقتصر الأعمال الأدبية على بيان الجهة التي تمتلك السلطة، وإنما تكشف أيضًا عن الكيفية التي تُمارَس بها السلطة، وكيف تُحافظ عليها، وكيف تؤثر في رؤية المجتمع وتصوراتهِ.

وقد أصبحت ظاهرة السلطة في الأعمال الأدبية موضوعًا لعددٍ من الدراسات. فقد بيَّنت دراسة (Safitri و Lestari (2024 في تحليلها لرواية *Laut Bercerita*، أن ممارسة السلطة قد تتم من خلال الرقابة الأخلاقية، ونشر الخطاب، وتقييد المجال الاجتماعي، بحيث يلتزم أفراد المجتمع بالقواعد السائدة لا بسبب الإكراه

(*coercion*) وحده، وإنما لأنهم يعدونها صحيحة ومشروعة. كما أوضحت دراسة وآخرين (Putra, 2023) وآخرين، في دراستها لرواية *Kawi Matin di Negeri Anjing*، أن اللغة، والرموز، والقواعد الاجتماعية يمكن أن تُستخدم وسائل لبناء ثقة المجتمع بالسلطة. وتشير نتائج هاتين الدراستين إلى أن الهيمنة تصبح أكثر فاعلية عندما تُقدّم في صورة حماية، أو أخلاق، أو مصلحة عامة.

وتدل هذه النتائج على أن الأعمال الأدبية قادرة على تصوير آليات عمل السلطة في المجتمع من خلال صور وتمثيلات متنوعة، وهو ما يؤكد أن دراسة السلطة في الأدب ما تزال ذات أهمية؛ لأنها تسهم في فهم الكيفية التي تُبنى بها العلاقة بين السلطة والمجتمع، وكيف تُحافظ عليها، وكيف تُصوّر في النصوص الأدبية.

وتتجلى هذه الظاهرة كذلك في الأدب العربي، ومن أبرز الأعمال التي تناولت قضية السلطة رواية زيني بركات للكاتب جمال الغيطاني. وتدور أحداث الرواية في مصر خلال أواخر عهد دولة المماليك، وهي مرحلة اتسمت بالصراعات السياسية والتنافس على السلطة. ومع أن الرواية تستند إلى إطار تاريخي، فإنها لا تقتصر على إعادة تصوير تلك المرحلة، بل تعرض من خلال شخصياتها وأحداثها صورة للعلاقة بين السلطان، وأجهزة السلطة، والمجتمع في ظل منظومة سياسية معقدة. وقد أشار (Amin 2022) إلى أن الرواية لا تقتصر على تسجيل أحداث الماضي، وإنما تنطوي أيضاً على نقدٍ للأنظمة المعاصرة التي تحافظ على سلطتها من خلال بناء سرديّة الطاعة.

وتكتسب قضية السلطة في هذه الرواية أهمية خاصة؛ لأنها لا تُصوّر من خلال ممارسات السلطة المباشرة فحسب، بل تظهر أيضاً من خلال منظومة متكاملة تشارك فيها أطرافٌ متعددة داخل المجتمع. فشخصية زيني بركات، على سبيل المثال، تُقدّم بوصفها شخصية عُرِفَت بالعدل، والاستقامة، والحرص على مصالح الناس.

غير أن هذه الصورة تخفي وراءها ممارسات قائمة على المراقبة والتحكم، الأمر الذي مكّن السلطة من بسط نفوذها على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية. ومن هنا تبرز أهمية دراسة رواية زيني بركات؛ لأنها لا تقتصر على بيان الجهة التي تمتلك السلطة، وإنما تكشف كذلك عن الكيفية التي تُبنى بها السلطة وتُمارَس من خلال وسائل متعددة.

ويزداد تصوير السلطة في الرواية وضوحًا بفضل بنيتها السردية المتعددة. فالسلطة لا تتجلى من خلال أفعال الشخصيات الرئيسة وحدها، وإنما تظهر أيضًا عبر التقارير، والشهادات، والحوارات، فضلًا عن رؤى الشخصيات الأخرى تجاه السلطة. ويرى (Zaher 2019) أن هذا النمط من السرد يكشف الكيفية التي يُبنى بها الخطاب، ويوجّه بها الرأي العام، ويصبح الخوف جزءًا من الحياة اليومية للمجتمع. ومن خلال ذلك يتضح أن السلطة في رواية زيني بركات لا تقوم على شخص واحد، بل تعمل عبر منظومة تؤثر في العلاقات الاجتماعية وفي حياة المجتمع بأكملها.

وفي إطار هذه المنظومة، تمارس السلطة أدوارها بوسائل مباشرة وغير مباشرة. فمن جهة، تُفرض المراقبة على المجتمع من خلال شبكات الجواسيس وجمع المعلومات، وقد يتعرض كل من يُنظر إليه بوصفه تهديدًا للسلطة للعقاب أو لمختلف أشكال الضغط. ومن جهة أخرى، لا تعتمد السلطة على هذه الوسائل وحدها، بل تستعين أيضًا بالدين، والقيم الأخلاقية، وبناء صورة القائد العادل، فضلًا عن توجيه المعلومات والحياة الثقافية، من أجل ترسيخ ثقة المجتمع بها. ويكشف ذلك أن استمرار السلطة لا يقوم على الإكراه (*coercion*) وحده، بل يرتبط أيضًا بتشكّل القبول (*consent*) تجاه القيم والصورة التي تعمل السلطة على ترسيخها.

ويتجلى ذلك في الطريقة التي تُقدِّم بها الرواية شخصية زيني بركات؛ إذ تصفه بأنه رجلٌ متواضع، يتمسك بالقيم الدينية، ويحرص على العدل، ويبدو كأنه لا يسعى إلى السلطة. وقد أسهمت هذه الصورة في تكوين نظرة المجتمع إليه بوصفه شخصيةً جديرةً بالثقة. ويرى (Hanafi 2018) أن الرواية تكشف عن آليات السلطة الكامنة خلف صورة الأخلاق والاستقامة. وعليه، فإن الصورة الأخلاقية والدينية التي ارتبطت بهذه الشخصية لا تُعدُّ مجرد وصفٍ لصفاتها، بل تمثل وسيلةً تُمكن السلطة من اكتساب ثقة المجتمع وقبوله.

ولا يقتصر الحفاظ على السلطة على شخصية زيني بركات وحدها، بل يمتد ليشمل مشاركة عناصر اجتماعية متعددة. فالشخصيات الدينية، والمؤسسات الاجتماعية، والجماعات ذات التأثير، إلى جانب الحياة الثقافية، تؤدي جميعها دوراً في تشكيل رؤية المجتمع وتوجيهها. فمن ناحية، يُدفع المجتمع إلى تقبُّل القيم والقواعد التي تُقدِّم بوصفها سبيلاً إلى الخير، والأمن، والاستقرار. ومن ناحية أخرى، تؤدي المراقبة المستمرة للمعلومات والحياة الاجتماعية إلى تضيق مساحة الحركة أمام أفراد المجتمع. ويكشف ذلك عن آلية للسلطة تقوم على الجمع بين التحكم المباشر وتشكيل الوعي المجتمعي.

ومع ذلك، لا تُصوِّر الرواية المجتمع على أنه يقبل السلطة قبولاً مطلقاً. فبعض الشخصيات تبدأ في التساؤل عن ممارسات السلطة، وترفض بعض الأوامر التي تراها مخالفةً للقيم الأخلاقية، كما تُظهر مواقف تختلف عن النظام القائم. ويعكس ذلك أن العلاقة بين السلطة والمجتمع ليست علاقةً ثابتة، بل هي علاقةٌ ديناميكية تتداخل فيها محاولات ترسيخ الهيمنة مع بوادر الرفض والمقاومة.

ومن ثم، فإن القضية الرئيسة التي تطرحها رواية زيني بركات لا تتمثل في تصوير سلطةٍ تقمع المجتمع فحسب، وإنما في الكشف عن الكيفية التي تُبنى بها السلطة،

وكيف تكتسب القبول (*consent*)، وكيف تُحافظ عليها، ثم كيف تواجه أشكال المقاومة التي تنشأ داخل المجتمع.

وقد تناول عددٌ من الباحثين رواية زيني بركات من زوايا مختلفة. فقد درس Khalil (2017) الرواية بوصفها نقدًا لإساءة استخدام المؤسسات العامة، ولا سيما مؤسسات الرقابة الأخلاقية. وأظهرت نتائج دراسته أن المؤسسات التي يُفترض أن تؤدي وظائفها الاجتماعية قد تتحول إلى جزءٍ من ممارسات السلطة. غير أن هذه الدراسة لم تتناول بصورةٍ معمقة الكيفية التي تُغرس بها القيم التي تتبناها الفئة المهيمنة في المجتمع عبر مختلف القنوات الاجتماعية والثقافية.

كما تناول Hanafi (2018) رواية زيني بركات بوصفها تمثيلًا للقمع السياسي، حيث ركزت دراسته على صورة "الدولة البوليسية" التي تتجلى في شدة المراقبة والممارسات القمعية تجاه المجتمع. وقد أسهمت هذه الدراسة في توضيح الكيفية التي تُمارس بها السلطة من خلال الرقابة والضغط. وفي السياق نفسه، ركزت دراسة Suryaningrum (2020) على النزعة السلطوية وتمثيل السلطة في رواية زيني بركات بوصفها نقدًا للأنظمة العسكرية في الشرق الأوسط، وأوضحت أن الخوف يُعدُّ إحدى الوسائل التي تُستخدم للحفاظ على استقرار السلطة.

وأجرى Munir (2021) دراسةً تناولت تمثيل الضبط الاجتماعي في رواية زيني بركات، حيث ركزت على العلاقة غير المتوازنة بين السلطة والمجتمع، ولا سيما من خلال ممارسات الرقابة والتحكم. وتؤكد هذه الدراسة أن قضية السلطة تمثل أحد المحاور الرئيسة في الرواية، إلا أن اهتمامها انصبَّ بصورةٍ أكبر على تمثيل الضبط الاجتماعي وأشكال السلطة الظاهرة في العلاقة بين السلطة والمجتمع.

وانطلاقًا من الدراسات السابقة، يتبين أن قضية السلطة في رواية زيني بركات ليست موضوعًا جديدًا بصورةٍ كاملة. فقد تناولت الدراسات السابقة قضايا

متعددة، مثل إساءة استخدام المؤسسات العامة، والقمع السياسي، والنزعة السلطوية، والضبط الاجتماعي (Khalil, 2017؛ Hanafi, 2018؛ Suryaningrum, 2020؛ Munir, 2021) ومع ذلك، ما يزال هناك جانب لم يُناقش بصورة كافية، وهو الكيفية التي تُبنى بها السلطة وتُحافظ عليها، لا من خلال الضغط والمراقبة فحسب، بل أيضاً من خلال تشكُّل القبول (consent) تجاهها داخل المجتمع.

وقد اكتسبت هذه الفجوة البحثية أهمية خاصة؛ لأن السلطة التي تصورها رواية زيني بركات تقوم على آليات أكثر تعقيداً من مجرد العلاقة بين سلطة تمارس القمع ومجتمع يخضع له. فمن ناحية، تعرض الرواية صوراً للمراقبة، وشبكات الجواسيس، والعقوبات، ومختلف أشكال الضغط. ومن ناحية أخرى، تُبنى السلطة أيضاً من خلال ترسيخ صورة القائد العادل والصالح، وتوظيف الدين والقيم الأخلاقية، والتحكم في المعلومات والثقافة، إلى جانب مشاركة الشخصيات المؤثرة في الحياة الاجتماعية. ويعني ذلك أن السلطة لا تُفرض من أعلى بواسطة الإكراه (coercion) وحده، بل تكتسب أيضاً الشرعية من خلال تشكُّل القبول داخل المجتمع.

وفضلاً عن ذلك، ما تزال هناك حاجة إلى دراسة الأطراف التي تسهم في المحافظة على السلطة، وكيفية استجابة المجتمع لها. فالسلطة في الرواية لا تعمل من خلال شخصية واحدة، وإنما تشارك في ترسيخها شخصيات دينية، وجماعات فكرية، وفنانون، وأجهزة مختلفة، فضلاً عن عناصر اجتماعية أخرى تسهم في تشكيل رؤية المجتمع. وفي الوقت نفسه، تكشف الرواية عن شخصيات ومواقف تُبدي التساؤل، أو الرفض، أو المقاومة تجاه السلطة القائمة. ومن ثم، فإن العلاقة بين هذه الجوانب المختلفة لم تحظَ بالاهتمام الكافي في الدراسات السابقة.

وبناءً على هذه الفجوة البحثية، لا يهدف هذا البحث إلى إعادة دراسة السلطة، أو القمع، أو المراقبة في رواية زيني بركات فحسب، وإنما يسعى إلى تحليل آليات السلطة بصورةٍ أشمل، من خلال تتبع كيف تتحقق السيطرة، واكتسابها القبول، ودور الشخصيات أو الجماعات في المحافظة عليها، فضلاً عن تتبع مظاهر المقاومة التي تظهر في مواجهة تلك الهيمنة. وبهذا يتمثل وجه الاختلاف الرئيس بين هذا البحث والدراسات السابقة في أنه لا يقتصر على بيان كيفية ممارسة السلطة، بل يركز على الكيفية التي تُبنى بها السلطة، وتُقبل، وتُحافظ عليها، وتُواجه داخل المجتمع كما تصورها الرواية.

ولفهم آليات السلطة في هذه الرواية فهماً أكثر عمقاً، يعتمد هذا البحث على نظرية الهيمنة التي طرحها أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci وقد اختيرت هذه النظرية لأن غرامشي لا ينظر إلى السلطة بوصفها هيمنةً تقوم على الإكراه (coercion) وحده، بل يعدها أيضاً عمليةً تقوم على اكتساب القبول (consent) من الفئات الخاضعة. أن السلطة تستمر عندما تصبح قيم الجماعة المهيمنة وأفكارها مقبولةً لدى المجتمع، بحيث تُعدُّ أمراً طبيعياً ومتوافقاً مع المصلحة العامة. ويتيح هذا التصور للبحث النظر إلى السلطة من منظورٍ أوسع؛ إذ لا يقتصر على دراسة الممارسات القسرية التي تمارسها السلطة، وإنما يمتد إلى تحليل الآليات التي تجعل السلطة مقبولةً وقادرةً على الاستمرار داخل المجتمع (Gramsci, 2013).

وترتبط أفكار غرامشي ارتباطاً وثيقاً بالإشكاليات التي تطرحها رواية زيني بركات. فالسلطة في الرواية تتجلى من خلال المراقبة، وشبكات الجواسيس، والعقوبات، ومختلف أشكال الضغط التي تُمارَس على المجتمع. غير أنها لا تعتمد على هذه الوسائل وحدها، بل تعمل أيضاً من خلال بناء صورة القائد العادل والصالح،

وتوظيف الدين والقيم الأخلاقية، والتحكم في المعلومات والحياة الثقافية، بما يسهم في تشكيل رؤية المجتمع تجاه السلطة. وفي مثل هذه الظروف، لا يلتزم المجتمع بالسلطة خوفاً من العقاب فحسب، وإنما أيضاً بسبب ترسخ قيم وأفكارٍ تمنحها القبول والشرعية.

وينسجم ذلك مع مفهوم الهيمنة عند غرامشي، الذي يجعل القبول (*consent*) أحد المرتكزات الأساسية في استمرار السلطة. ومن خلال هذا المفهوم، لا يتوقف البحث عند التساؤل حول الجهة التي تمتلك السلطة أو أشكال الممارسات التي تمارسها تجاه المجتمع، بل يمتد إلى دراسة الكيفية التي تتشكل بها رؤية المجتمع، بحيث تصبح السلطة مقبولةً في نظره. وفي هذا السياق، يرى Arifin أن الأعمال الأدبية التي تقدم شخصية القائد الديني قادرة على الكشف عن الكيفية التي تُخفى بها الهيمنة خلف غرس القيم الأخلاقية، حتى تصبح هذه القيم مقبولةً لدى المجتمع. وفي رواية زيني بركات، تكتسب العلاقة بين الأخلاق، والدين، وصورة القيادة، والسلطة أهميةً خاصة؛ لأن هذه العناصر تتداخل مع ممارسات المراقبة والتحكم في المجتمع (Arifin, 2021).

ولا تقتصر نظرية غرامشي على تفسير العلاقة بين الهيمنة والقبول، بل تتيح أيضاً دراسة الأطراف التي تسهم في تشكيل الرؤية المهيمنة والمحافظة عليها داخل المجتمع. فالسلطة لا تعمل دائماً من خلال أصحاب السلطة بصورة مباشرة، وإنما قد تعتمد على جماعات أو شخصيات تمتلك تأثيراً في الحياة الاجتماعية. وفي رواية زيني بركات، يكشف حضور الشخصيات الدينية، والجماعات الفكرية، والفنانين، وغيرهم من الفاعلين الاجتماعيين، أن استمرار السلطة يرتبط بشبكةٍ أوسع من العلاقات الاجتماعية، وأن لهذه الأطراف دوراً في نقل القيم والأفكار التي تعزز مكانة الجماعة المهيمنة داخل المجتمع.

وفي الوقت نفسه، لا يرى غرامشي أن الهيمنة حالة ثابتة أو مضمونة الاستمرار، بل قد تواجه الرفض عندما يظهر وعي ورؤى تختلف عن قيم الجماعة المهيمنة. ويظهر ذلك أيضاً في رواية زيني بركات من خلال شخصيات ومواقف تتساءل عن السلطة، أو ترفضها، أو تقاومها. ومن ثم، تُمكن نظرية غرامشي هذا البحث من دراسة العلاقة بين السلطة والمجتمع بوصفها عملية ديناميكية تبدأ بتشكّل الهيمنة، ثم اكتسابها القبول، وتتمر بدور الأطراف التي تحافظ عليها، وتنتهي بظهور أشكال المقاومة في مواجهتها.

وبناءً على ذلك، اختيرت نظرية الهيمنة لأنطونيو غرامشي؛ لقدرتها على معالجة الفجوة التي كشفت عنها الدراسات السابقة. فإذا كانت تلك الدراسات قد ركزت على القمع، والنزعة السلطوية، والمراقبة، والضبط الاجتماعي في رواية زيني بركات، فإن هذه النظرية تتيح تحليلاً أشمل يفسر كيفية ممارسة السلطة واكتسابها القبول، ودور الجماعات المختلفة في ترسيخ الرؤية المهيمنة، فضلاً عن تفسير ظهور المقاومة تجاهها. ومن ثم، فإن توظيف نظرية غرامشي في هذا البحث لا يهدف إلى تقديم منظور نظري مختلف فحسب، بل يسعى أيضاً إلى تفسير جانب من آليات السلطة في رواية زيني بركات لم يحظَ بالبحث المعمق في الدراسات السابقة.

ب. تركيز البحث وفرعيته

ينقسم هذا البحث إلى عدة محاور؛ حتى تكون مناقشته أكثر تركيزاً وتنظيماً،

وهي:

١. مظاهر الهيمنة التي تتجلى في أحداث الرواية، سواءً من خلال أفعال الشخصيات، أم السياسات، أم الخطابات التي تُجسّدُها.
٢. دور الشخصيات أو المؤسسات بوصفها وسائل لتشكيل الوعي المجتمعي والتحكم فيه من خلال الحياة الاجتماعية.

٣. أثر الهيمنة في الطريقة التي ينظر بها المجتمع في الرواية إلى السلطة، والطاعة، والبنية الاجتماعية.

وعليه، فإن هذا البحث لا يقتصر على تحليل أحداث الرواية فحسب، وإنما يسعى إلى الكشف عن الكيفية التي أصبحت بها الهيمنة أداةً للسلطة تعمل عبر آليات متعددة تحظى بقبول المجتمع دون مقاومة ظاهرة.

ج. تنظيم المشكلة

انطلاقاً من هذه الأفكار، تمَّ صياغةُ هذا البحث في مجموعةٍ من الأسئلة على النحو الآتي:

١. كيف تُصوّر الهيمنة في رواية زيني بركات؟
 ٢. كيف يتمثل دور الشخصيات أو المؤسسات بوصفها وسائلَ للتحكم في الوعي المجتمعي من خلال الحياة الاجتماعية؟
 ٣. ما أثر الهيمنة في نظرة المجتمع، ومواقفه، وحياته الاجتماعية كما تصوّرها الرواية؟
- د. أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى ما يأتي:

١. الكشف عن مظاهر الهيمنة في رواية زيني بركات.
٢. تحديد دور الشخصيات أو المؤسسات بوصفها وسائلَ للتحكم في الوعي المجتمعي من خلال الحياة الاجتماعية.
٣. بيان أثر الهيمنة في حياة المجتمع كما تصوّرها أحداث الرواية.

هـ. أهمية البحث

تظهر فائدة هذا البحث في جانبين رئيسيين:

١. الفوائد النظرية

يُتَوَقَّعُ أن يُسهم هذا البحث في تطوير دراسة علم اجتماع الأدب، كما يُقدِّم منظورًا جديدًا في قراءة الأدب العربي، بحيث لا يُنظر إليه كفنٍ فقط، بل كمرآةٍ تُعكس من خلالها الأيديولوجيا التي تُشكِّل وعي المجتمع وفهمه.

٢. الفوائد العملية

بالنسبة للطلبة والباحثين في مجال تعليم اللغة العربية، يمكن أن يكون هذا البحث مثالًا على أن دراسة الأدب تساعد على فهم المعرفة في سياقها الاجتماعي الواسع. كما يمكن الاستفادة منه كمرجعٍ لأبحاثٍ لاحقة تتناول الموضوع نفسه، سواء في مجال الهيمنة أو في دراسة الأعمال الأدبية العربية القديمة والحديثة.

